

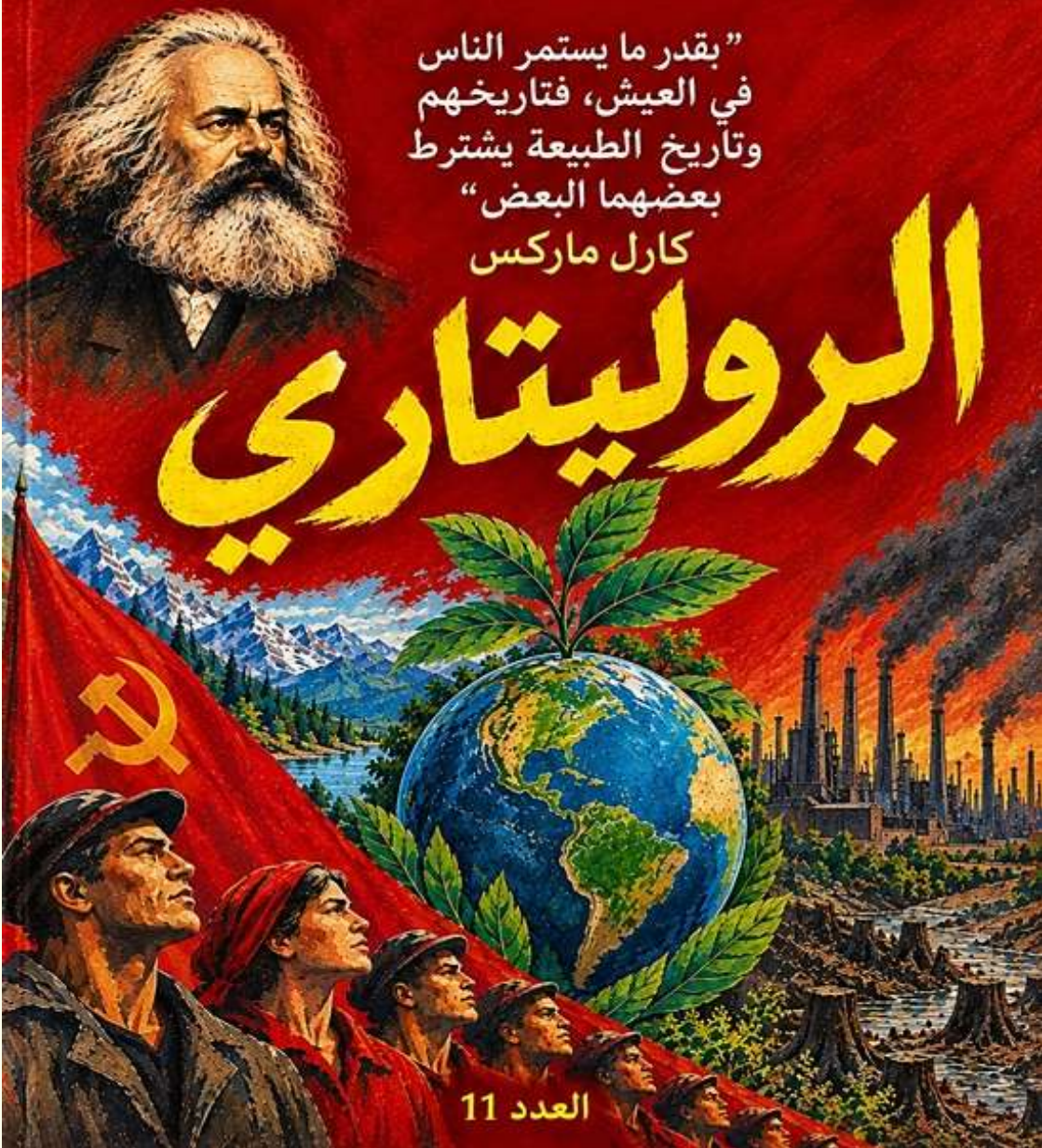
نظرية صراع الطبقات

الجزء السابع

صراع الطبقات والمسألة الإيكولوجية

”بقدر ما يستمر الناس
في العيش، فتاريخهم
وتاريخ الطبيعة يشترط
بعضهما البعض“
كارل ماركس

البروليتاري



نظرية صراع الطبقات

علي محمود
الجزء السابع

صراع الطبقات والمسألة الإيكولوجية

"بقدر ما يستمر الناس في العيش، فتاريخهم وتاريخ الطبيعة يشترط بعضهما البعض"

كارل ماركس، "الإيديولوجيا الألمانية"

تقديم

يعتقد الكثير من المثقفين السطحيين أن النضال الإيكولوجي لا علاقة له بصراع الطبقات، والحال أن هذا الشكل من النضال مرتبط عضويا بصراع الطبقات، ذلك أن المشاكل البيئية تمس بطريقة متفاوتة الطبقات الشعبية من جهة، ومن جهة أخرى في كونها تولد من المصالح الاقتصادية للطبقات المسيطرة، فالنضال الإيكولوجي في غياب استحضار منظور صراع الطبقات، يعتبر ناقصا وبدون بوصلة، لأن التغيير البيئي يستوجب إدماج مسائل العدالة الاجتماعية واستغلال العمل، وتوزيع الخيرات وإعادة النظر في النظام الرأسمالي.

1) فأي علاقة بين النضال الإيكولوجي وصراع الطبقات؟

على مستوى النتائج والتأثير، فالطبقات الاجتماعية الأكثر تضررا من نتائج الأزمة الإيكولوجية والتدهور البيئي، مثال تلوث الهواء والماء، هي الفئات الشعبية التي تعاني من الفقر والاستغلال، ثم إن المشاكل البيئية مرتبطة أشد الارتباط بمنطق استغلال العمل والزيادة المحمومة في الأرباح، وهما ميزتان أساسيتان للنظام الرأسمالي، فالشركات الصناعية، لأسباب اقتصادية، تكون وراء التلوث الكثيف للمناخ بشكل عام، وإنه بإدماج الإيكولوجيا في صراع الطبقات، يسمح باقتراح حلول ملموسة، مثال، التقليل من وقت العمل بدون الزيادة في الإنتاجية، الشيء الذي يسمح بتقليل التأثير على البيئة وتحسين ظروف العمل، ويمكن للعمل النقابي الجاد أن يلعب دوره في الاعتماد على هذه الرهانات.

نقد الإيكولوجيا البورجوازية

إن هيمنة البورجوازية المتوسطة على الحركات الإيكولوجية لأمر ساطع، الشيء الذي يجعل الحركة تركز على الحركات الفردية، كانتقاء أو التقليل من استهلاك اللحوم، بدون المساس بالأسباب الحقيقية للمشكل، والمتمثلة في طبيعة النظام الاقتصادي الرأسمالي.

وبالمقابل، فالمقاربة المعتمدة على صراع الطبقات، ترى أن حماية البيئة يجب أن تكون مشروعاً اجتماعياً وجماعياً، ويعني هذا، إعادة النظر في النموذج الإنتاجي والاستغلالي، والتخطيط الإيكولوجي للقوى المنتجة وإعطاء سلطة للمواطنين والعمال للتأثير على بيئتهم.

"إن الإيكولوجيا بدون صراع الطبقات هي مجرد بستنة"

إن صاحب هذا الشعار الذي انتشر عالمياً، هو الناشط البرازيلي تشيكو مونديز، والذي يعني، أن الإيكولوجيا لا يمكن اختزالها إلى مجرد إشارات فردية أو ممارسات للبستنة، بل يجب أن تتطرق للأسباب العميقة للأزمة الإيكولوجية، المرتبطة ارتباطاً عضوياً بنظام الطبقات في المجتمع الرأسمالي، ويعني الشعار أعلاه، أنه لا يمكن حل المشاكل البيئية بدون إعادة النظر في نموذج الإنتاج والاستهلاك الرأسمالي، والذي يعتمد على الاستغلال، المسؤول الرئيسي على تدهور الأنظمة البيئية.

وكما يقول ماتيو فيكور في مقاله "الإيكولوجيا صراع طبقات"، إن الإيكولوجيا السياسية تجد صعوبة في مواجهة الكارثة البيئية، وكما بين جان بابتيستكومبي، أن الإيكولوجيا السياسية عليها أن تصبح في نفس الوقت رافعة استراتيجية وبوصلة لصراع طبقي حقيقي.

لقد حاول جان بابتيستكومبي الجواب بشكل منهجي في كتابه "إيكولوجيون لكن ليس كثيراً..." فلاحظ أن السياسات الإيكولوجية، سواء منها الإصلاحية (النضال البيئي العمومي والرأسمالية الخضراء) أو غير رأسمالية (البدايل لهامش اللعب الاجتماعي) كلاهما يعتمد على فلسفة واحدة للذات الفردية، والتي تتناسى اتجاه العالم الاجتماعي إلى إعادة إنتاج نفسه. هكذا، فالسيطرة القائمة على الطبقة والنوع والعرق من جهة، والمواقف والممارسات غير الإيكولوجية من جهة أخرى، فإنها لم تعرف زعزعة بنيوية، ويقترح عالم الاجتماع أعلاه، العمل على جعل الإيكولوجيا قوة تغييرية، هدفها ليس جعل العقلية إيكولوجية، بل تغيير بنية العلاقات الاجتماعية، التي تتشكل في داخلها هذه العقلية. وبشكل ملموس أكثر، فإن الرهان هو اقتلاع وتفكيك الرحم الرأسمالي للعلاقات الاجتماعية، التي تكون الناس في المدارس وفي العمل على مواقف غير ملائمة لمجتمع سليم إيكولوجياً: النجاح الفردي والمنافسة المعقدة أو تراكم الرساميل.

(2) الإيكولوجيا والبعد الاشتراكي

تتناول وسائل الإعلام المختلفة باستمرار ما يطلق عليه بالأزمة الإيكولوجية، والاحتباس الحراري واتساع ثقب الأوزون، ويتمظهر ذلك عبر ارتفاع الحرارة، الشيء الذي يولد مناخا غير قار وحصول وقائع مناخية قصوى (عواصف غير مسبوقة، فيضانات مهولة، جفاف حاد ...).

هناك اضطراب للنظام البيئي ينتج عنه اختفاء متسارع لعشرات الآلاف من الأنواع النباتية والحيوانية كل سنة، مما يعني أن هناك تهديد لوجود أغلبية أشكال الحياة على الأرض، وأمام هذا الأمر، بدأ يتضح للجميع أن الرأسماليين مهتمون أكثر بأرباحهم من بقاء الحياة بالنسبة للكوكب وللشعوب، وقد تولد عن ذلك نشوء وتطور حركات النضال الإيكولوجي المطالبة بالعدالة الإيكولوجية وبالتصدي للأوضاع البيئية.

وفي ظل هذه الأوضاع، تخترق حركة النضال الإيكولوجي صراعات إيديولوجية وسياسية، بين المدافعين عن الماركسية وبين اللذين يعتبرونها متقدمة وغير صالحة للمسألة الإيكولوجية. وبطبيعة الحال يستغلون ما يسمونه بتجربة الاتحاد السوفياتي، فينهلون من ترسانة الامبريالية المعادية للشيوعية في جهل تام للحقائق التاريخية.

3) الماركسية في معمعان النضال، ضد التيارات الإيكولوجية البورجوازية الصغيرة

إن الماركسية صالحة أن تكون نقطة انطلاق أساسية من أجل استيعاب طبيعة المشكلة الإيكولوجي ورهاناته المختلفة، ذلك أن الأزمة الإيكولوجية العالمية تستدعي جوابا منسجما وشاملا.

- في التداخل بين الإنسان والطبيعة

يعتقد الكثير من خصوم الماركسية أن اهتمام ماركس و انجلز عندما يقرون بذلك كان ثانويا، والحال أن ماركس في "المخطوطات الاقتصادية والفلسفية" 1844، يقول:

"الإنسان يعيش من الطبيعة، تعني: أن الطبيعة هي جسده الذي يحافظ به على سيرورة مستمرة كي لا يموت، فالقول أن الحياة الفيزيولوجية والفكرية للإنسان هي مرتبطة بشكل لا ينفصم بالطبيعة، فهذا لا يعني شيئا آخر سوى أن الطبيعة مرتبطة بشكل لا ينفصم مع نفسها، ذلك أن الإنسان جزء من الطبيعة".

إن هذه المسائل سترد في أهم عمل لماركس، وفي تاريخ الاقتصاد السياسي، إنه كتاب "الرأسمال". يقول ماركس في هذا الكتاب:

"لا أمة واحدة ولا جميع الأمم، التي يتضمنها العالم بمالكة للأرض، فليست سوى حائزة، ولها فقط حق الانتفاع، مع الالتزام كأب حريص على نقلها إلى الأجيال المقبلة".

إن أفكار ماركس و انجلز القائمة عل المنهج المادي الجدلي لمقاربة علاقة الإنسان بالطبيعة، وما يترتب عنها من إشكالات هي نتيجة سوء استعمال الطبيعة.

وتطرق انجلز للموضوع بشكل أكثر في كتابه الشهير "جدلية الطبيعة" قائلاً أنه:

"إذا كنا نوجد في الطبيعة التي قامت بتشكيلنا، فأعمالنا يمكن أن تغيرها في نفس الوقت الذي نغير فيه نحن أنفسنا، وهذه الطبيعة المتغيرة عن طريقنا يمكنها أن تغيرنا من جديد، وهذا صحيح بالنسبة لحياة كل المجتمعات الإنسانية منذ أن أصبحت الإنسانية موجودة، بسبب خلاف أساسي بين الإنسان والحيوانات الأخرى. والميزة الخاصة بالنوع الإنساني هي قدرته، ليس فقط في القيام برد الفعل تجاه العالم الطبيعي، بل كذلك أن يكون واعياً بهذا العالم، وأن يعمل ويخطط لتغيير الأشياء على مستوى كبير، وفي قلب هذه القدرة توجد مجموعة من الأنشطة المطبقة من أجل خلق الإنتاج.

هكذا، فالعلاقات بين الإنسان والطبيعة يحكمها العمل، وخاصة الطريقة التي تنظم بها هذه المجتمعات العمل".

عرف التاريخ البشري مجتمعات مختلفة بعضها عاش في انسجام مع الطبيعة، مثال المشاعات البدائية، وبعضها عاش علاقات تدميرية ومأساوية مع الطبيعة، وهو حال المجتمعات التي عاشت على جزيرة باك، وهو كذلك حالة حضارة المايا، والحالتان الأخيرتان عرفتا تدميراً للبيئة، الشيء الذي أدى إلى تدمير تلك المجتمعات وتلك الحضارات، وإلى حدود نشوء الرأسمالية ظل الأمر محدوداً ومحلياً. مع الرأسمالية واتساع دائرة الإنتاج نشأت علاقات تدميرية مع الطبيعة، وبدرجة كبيرة، خاصة لما أصبح نمط الإنتاج الرأسمالي معمماً على الصعيد العالمي.

هكذا، نشأت ظروف أعطت نشوء مشاكل بيئية من حجم كبير، ويعني هذا مشاكل بيئية غير مسبوقة، أصبح معها بالإمكان الحديث عن تحطيم شامل للمجتمعات وللطبيعة.

- الرأسمالية والقطيعة الأيضية (متلازمة الأيض، الاضطراب الاستقلابي)

حسب ماركس:

"الإنسان والطبيعة يشكلان جزءا من أبيض وحيد (ميتابوليزم) يعني مجموعة ردود الفعل التي تجري لدى كائن حي تسمح له بالبقاء على قيد الحياة، الشيء الذي يعني بدوره أن التفاعلات بين الإنسان والطبيعة، التي يحكمها العمل يجب أن تبقى متوازنة، فالاختلال في التوازن يولد مخاطر بانهايار الأبيض".

إن أغلبية الناس في المجتمع الرأسمالي، خاصة العمال، قد انتزعت منهم غاية عملهم (يمكن الحديث هنا عن استغلال اجتماعي) وذلك من طرف الرأسماليين، اللذين تشكل الأرباح غايتهم العليا، وليس تلبية حاجيات الناس ولا الحفاظ على التوازن الميتابولزمي.

ولتقديم صورة عن هذا المنطق، قام ماركس في كتابه "الرأسمال" بدراسة الكوارث التي تسببها الزراعة الرأسمالية في إنجلترا، وذلك بالنسبة للأراضي الزراعية وللبيئة بشكل عام.

لقد لاحظ ماركس التفقر الذي تتعرض له الأراضي الزراعية (فقدان الخصوبة)، وذلك عن طريق الزراعة الرأسمالية المدفوعة بالبحث عن المردودية الأكثر ارتفاعا. إن هذا التفقر للأراضي الزراعية يتم التعويض عنه عن طريق تراكم ضخ من السماد المستعمل، من قبيل ما يسمى بالغوانو، الذي كان يستورد في القرن 19 من البيرو.

وعموما، فما كان الإنسان يستخرجه من الطبيعة، ومن بيئته من أجل عيشه كان بشكل تقليدي، يتم إعادته إلى الأرض في شكل غائط والسماد الطبيعي حسب ما يسميه ماركس بـ "منطق الاسترداد"، لكن مع تطور الرأسمالية وحركة التمدين غير المراقبة فمنطق "الاسترداد" تم تكسيه. لقد أصبحت النفايات تأخذ شكل تلوث وتتراكم في المدن في مجاري المياه، ومن أجل تغذية ساكنة مدنية متزايدة العدد باستمرار وطفيلية بالمقارنة مع البيئة الزراعية. إن فائض السماد المستورد أكثر فأكثر، كان هو الحل لدى المزارعين الرأسماليين وملاك الأرض. هكذا، لاحظ ماركس مبكرا، المخاطر والكوارث المتولدة عن ما يسمى بـ الثورة الزراعية الثانية" (المقصود بها ما يسمى بالثورة الخضراء وهي فترة عرفت تحديثا مكثفا للزراعة، وقد بدأت نهاية القرن 19، وتعممت بعد الحرب العالمية الثانية)، وكان ماركس، بطبيعة الحال سينتقد اتساع استعمال المبيدات الحشرية والأسمدة الكيماوية.

انطلاقا من النموذج الانجليزي، قام ماركس بالتنظير لمفهوم **القطيعة الميتابولزمية**، والذي يشير إلى تدمير التوازن الميتابولزمي على يد الرأسمالية، ويقوم ذلك على كون الإنتاج الرأسمالي متمحور على الربح و يولد ميكانيك التراكم اللانهائي، الذي يولد بدوره استغلالا مكثفا وفوضويا ومتزايدا

للطبيعة، في نفس الوقت الذي يولد استغلالا متزايدا للعمال، إنه منطق، يشكل حفار قبور بالنسبة للحياة بشكل عام وبالنسبة للميتابوليزم.

إن الاعتبارات التي قام عليها تحليل ماركس حول الرأسمالية الزراعية، وحول ضرورة استعادة الأرض لمغذياتها، والمقصود بذلك النفايات العضوية في المدن، ستقود جميعها إلى الفكرة العامة، بل الأكثر عمومية، ونعني بها فكرة الديمومة الإيكولوجية.

وقد لاحظ ماركس في كتابه "الرأسمال" أن:

"الواقع بالنسبة لزراعة مختلف منتجات الأرض، والتي تخضع لتقلبات أسعار السوق، و التي تتسبب في تغيير مستمر للزراعة وروح الإنتاج الرأسمالي نفسه المتمحور على الربح الأكثر مباشرة، إنها كلها في تناقض مع الزراعة، التي أصبح لازما عليها أن تقوم بالإنتاج، آخذة في الاعتبار مجموع ظروف العيش الدائمة للأجيال البشرية المتتالية.

- من القطيعة الأيضية (الميتابوليزمية) إلى القطيعة مع النظام الرأسمالي

لقد أصبح النظام الرأسمالي اليوم عبارة عن وحش كبير وعجوز يلتهم كل شيء، لقد استطاع النظام الرأسمال أن يلجم القطيعة الأيضية الأولى، بسبب امتداده عالميا وانتقاله إلى مرحلة جديدة هي الامبريالية، أما اليوم، فإن تمظهر القطيعة الأكثر وضوحا فتتمثل فيما يسمى بالتغير المناخي، وسواء القطيعة بمعناها الأول (مسألة خصوبة الأرض) أو بمعناها الحالي، فكلاهما له جذر واحد، هو نمط إنتاج بيد أقلية، حيث المحفزات هي البحث عن الربح.

وبطبيعة الحال، فالقطيعة الأيضية الحالية، وصلت مستوى درجة عال أكثر أهمية وخطورة من الأولى، وهنا يجب الحديث عن:

- الاستعمال الكثيف و الكبير لمصادر الطاقة، التي أصبحت تلعب دورا مركزيا في النظام ، حتى تقوت التبعية أكثر فأكثر تجاه مصادر هذه الطاقة، و تسبب الآن حروبا و معارك لا تنتهي. و الشركات الكبرى، التي تستخرج و تكرر و تدير توزيع الطاقات الأحفورية، تشكل جزءا من عشر شركات متعددة الجنسية، التي حققت أكبر الأرباح و أكبر أرقام معاملات بالنسبة لسنة 2017، من بينها خمسة شركات متعددة الجنسيات مختصة في إنتاج و تسويق البترول و الغاز.

إن الطاقات الأحفورية تمثل 80% من الإنتاج الطاقى العالمي، و تشكل المادة الأساسية لأرباح الرأسمالية.

إن إنتاج غاز الكربون وصل مستوى من الارتفاع أصبح معه الميثانوليزم غير قادر على السماح به، وإن هذا لمنتوج فرعي للطريقة التي تعمل بها الرأسمالية منذ القرن 18 و أول ثورة صناعية، وهذا ما يجعلنا نقول أنه خارج أي قرار فعلي، و خارج النيات الخجولة لن يوضع في حيز التنفيذ من طرف الدول، التي ترتبط مصالحها أشد الارتباط بمصالح الشركات المتعددة الجنسيات، و نعلم جيدا أنه إذا كان البعد الدولي و الاحتكاري للرأسمالية هو واقع، فنعلم كذلك أن النظام يبقى نظاما مشكل من العديد من الرساميل، كل منها له ارتباط قومي أو محلي وطنيا، و كل دولة تقوم بحماية أرباح شركاتها حتى تبقى في مستوى من التنافسية في السوق العالمي، و من هنا المنطق الذي يمكن استنتاجه بالنسبة لهذه الدول، هو القيام بالحد الأقصى ضد التغير المناخي، فلماذا يجب القيام بشيء ما ما دامت الكلفة تحسب على الصعيد الوطني، خاصة إذا كان الآخرون لا يفعلون شيئا، و ذلك باسم التنافسية.

4) بعض النقاشات حول ما إذا كان التغير الإيكولوجي بالإمكان القيام به في إطار الرأسمالية

منذ سنوات و النقاشات تدور حول إمكانية حل الأزمة الإيكولوجية، و حل مشكل التغير المناخي في إطار النظام الرأسمالي.

لقد رأينا أعلاه أن القطيعة الأيضية الحالية وصلت درجة عليا تتجاوز بكثير ما تحدث عنه ماركس في زمانه، فهذه القطيعة التي تولدت عن التغير المناخي أكثر تعقيدا، و يرى خصوم الماركسية، أن الاشتراكية من خلال التجربة السوفياتية قد فشلت في التعامل مع المشكل الإيكولوجي، و أن البورجوازية العالمية قد فشلت في إعطاء جواب عن الأزمة المناخية، يحاول هذا الرأي أن يجد حلا ثالثا، فيجد نفسه يعترف بالمشكل، و في نفس الوقت يحتاج إلى النظام الرأسمالي على المدى القريب، علما أنه لا وجود لحل ممكن بدون تدخل، على الصعيد السياسي، لأولئك اللذين يعانون أكثر من الكوارث التي تسببها الأزمة الإيكولوجية، و هم العمال و المستغلون و الشعوب المضطهدة، القوى القادرة على قلب موازين القوى.

إن الاعتقاد بإمكانية وجود حل في إطار النظام الرأسمالي للتمظهرات الأكثر خطورة للقطيعة الأيضية فهم واهمون، لأنه ستبقى دائما هناك قطيعة في ظل رأسمالية مستمرة.

إن التناقض العدائي مع العالم الطبيعي يعود إلى طابع النظام نفسه، إنه نظام إنتاج و استغلال و اضطهاد، و هي عناصره المكونة الثلاث، و وحدها قطيعة جذرية مناهضة للرأسمالية، تسمح بإيجاد حياة منسجمة بين البشر و الطبيعة.

و خلاصة القول، فإنه حسب المنطق المادي الجدلي، فإن العلاقات بين البشر والطبيعة يحكمها العمل (انظر كراسة انجلز "دور العمل في تحول القرد إلى إنسان")، وكما رأينا أعلاه، فإن الإنسان والطبيعة يشكلان جزءاً من ميتابوليوزم وحيد، والرأسمالية في مسارها التطوري تسببت في قطيعة أليضية غير مسبقة في تاريخ الإنسانية. إن القطيعة الأليضية الحالية، والتي تتمثل اليوم في الاحتباس الحراري، لهي تهديد لكل أشكال الحياة، وإن القطيعة مع النظام الرأسمالي هي الشرط الذي لا مناص منه للعودة إلى الانسجام مع الطبيعة، وإن الإسهامات الماركسية تغني النقاشات الدائرة اليوم وسط الحركة الإيكولوجية، ويمكن أن تشكل سلاحاً هاماً، بإمكانه توجيه هذه الحركات على سكة تغيير اجتماعي جذري.

(للمزيد من الاطلاع حول هذا الجزء انظر كتاب جون بيلامي فوستر تحت عنوان "ماركس إيكولوجيا" 2011، و فوستر هو أحد الوجوه البارزة في تيار الإكو- اشتراكية في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو كذلك أستاذ علم الاجتماع في جامعة أوريغون) (انظر كذلك كتاب "إنذار بالكارثة" لستيفان إنجل).

الإيكولوجيا و التجربة السوفياتية: التجربة الاشتراكية في مواجهة المسألة الإيكولوجية

لقد أصبح واضحاً اليوم أن حياة الناس أصبحت سيئة بما لا يطاق، ولم تعد المعاناة تقتصر على ظروف العمل السيئة، خاصة لدى العمال والكادحين، بل أصبحت ظروف الحياة تتدهور بالنسبة لغالبية سكان الأرض مقابل تحسن مستمر لحياة الأغنياء، اللذين يتغذون "ببؤ"، و يتناولون أغذية متوازنة، يقومون بالرياضة و يصونون أليضهم، بل يطيلون أمد حياتهم، بل أحياناً أخرى يعيشون في جزر عذراء بعيداً عن الناس و عن التلوث، بينما تنتشر الأمراض بكل أنواعها، من سرطان و أمراض القلب و الشرايين، إضافة إلى انتشار عدم التوازن النفسي و الفيزيولوجي، جراء المعاناة التي يعيشها العمال و الكادحون و المهمشون و الفقراء من ساكنة الأرض و اللذين يعدون بالملايير.

إن هذا التدهور في حياة الناس مرتبط بالإننتاجية الرأسمالية، حيث انتشار الزراعة المكثفة المستعملة للمبيدات و الأسمدة الكيماوية، و التي تدمر خصوبة الأراضي و تلوث الفرش المائية، بحثاً عن مردودية أعلى و أرباحاً أقصى، و كل هذا في إطار تطور فوضوي و قصير المدى للصناعة بشكل عام، و التي تعيش أزمة بنيوية و معقدة، و تؤدي جماهير واسع من ساكنة الأرض ثمن أزمة الرأسمالية العالمية المستمرة، و بنفس الدرجة النتائج البيئية المتولدة عن تلك السياسات.

و في هذا السياق، نشأت حركات و تطورت نضالات جديدة تدعو إلى حماية البيئة و ظروف الحياة، و لذلك نشأت الحركة على اليسار و ليس على اليمين، ذلك أننا نناضل من أجل تحررنا عن طريق العمل، و في نفس الوقت من أجل تفتحنا وسط عالم تجب حمايته من مساوئ الرأسمالية، التي وصلت درجة حادة من التدمير الحيوي للبشر و الطبيعة. و بنفس الدرجة، التي تحدث فيها ماركس عن العامل المنعزل، الذي لا يحس مباشرة بالدور التاريخي لطبقته، في ضرورة القضاء على الرأسمالية التي تدمر مجتمعاتنا و حياتنا، و إذا كان الاحتياج هنا إلى وعي طبقي جماعي و حزب منظم، فنفس هذا العامل سيحس بدرجة أقل و بشكل عفوي نفس هذه الضرورة تجاه الخطر، الذي يمثله النظام الرأسمالي بالنسبة لنا و للأجيال القادمة من العمال و الكادحين، اللذين يتهددهم بشكل كبير التدمير المحتمل للبيئة.

هكذا، نرى وجود ارتباط قوي و وثيق بين النضال من أجل التحرر الاقتصادي و النضال من أجل تحسين الحياة و حمايتها من السقوط النهائي، و من المؤشرات الإيجابية في نضال اليوم، أن أصبحنا نجد خلال المسيرات الكبرى و الوقفات النضالية تجاور الأعلام الحمراء و الأعلام الخضراء.

لقد عرفت الحركة الإيكولوجية اليوم مجموعة من التطورات، أهمها بداية انتقالها إلى الاشتراكية و الماركسية كثمار لصراع علمي و إيديولوجي خاضه الماركسيون عبر العالم، و خاصة الانجلوساكسونيون منهم، اللذين ظلوا مخلصين للإرث الماركسي بخلاف الماركسية الفرنسية، التي عرفت ردة كبيرة في مجال البحث الأكاديمي و العلمي، و انعكاس ذلك على مثقفي المستعمرات الفرنسية السابقة، أو ما يسمى بالدول الفرنكوفونية. و قد عرف النشاط الفكري العالمي إصدارات فكرية و أكاديمية علمية ماركسية بصدور العديد من الكتب، التي انتصرت للفكر الماركسي في مجال الأنثروبولوجيا و البيولوجيا و الإيكولوجيا... .

كانت الحركة الإيكولوجية في بدايتها معادية للشيوعية و الاشتراكية، و تتهم ماركس و الماركسية و لينين و التجربة السوفياتية بالإنتاجية (الإنتاج من أجل الإنتاج)، لكن الصراع الذي خاضه الماركسيون ضد ذلك، و سقوط الأوهام المرتبطة بما يسمى "الرأسمالية الخضراء"، و اختراق الماركسية لتيار ما يسمى ب الإيكواشتراكية (المقصود التيار الاشتراكي الديمقراطي).

هل كان الشيوعيون إنتاجيون؟

في فترة من الفترات انتشر التيار الاشتراكي الديمقراطي وسط الحركة الإيكولوجية، بينما كان الماركسيون -اللينينيون في وضع دفاعي، خاصة على المستوى النظري، و كانت الأفكار المسبقة

و المعادية للماركسية و الشيوعية منتشرة بشكل واسع، بدون رد حاسم من الشيوعيين و الماركسيين. بطبيعة الحال كانت الحملات مفبركة و مجانية للحقيقة التاريخية، فاتهم الاتحاد السوفياتي من ثورة أكتوبر إلى موت ستالين بالإنتاجية، لم يكن يقف على أي جانب من الحقيقة، بل استعمال الأكاذيب و الخلط بين المرحلة الستالينية و المرحلة الخروتشوفية على الرغم من الفارق الموضوعي بينهما.

خلال ثلاثين سنة و إلى حدود سنوات الخمسينات، و رغم الحصار الامبريالي، كان الاتحاد السوفياتي هو الدولة الأكثر تقدما في العالم في مجال الإيكولوجيا، ليس فقط بحسب قدرته على حماية البيئة، بل كذلك نتيجة اختياراته و التقنيات التي استعملها في مجال الزراعة (التخطيط و التدبير الاقتصادي).

إن الإيكولوجيا السياسية حاولت بكل الوسائل أن تتميز عن الماركسية معتبرة إياها إنتاجية، بل حتى بروموسياسية أي تعطي الأهمية للإنسان و إرادته على حساب الطبيعة (بروموسوس شخصية أسطورية يونانية و هو من سرق النار، نار المعرفة و قدمها للإنسان فعاقبته الآلهة عقابا شديدا).

من الجانب النظري و التاريخي، فإن الاشتراكية هي المرحلة العليا للإيكولوجيا، و الغريب أن الأسس السياسية التي تقوم عليها الإيكو- اشتراكية تعيد إنتاج أولى التصورات الفوضوية و الطوباوية الاشتراكية للقرن 19، فهي تبحث عن حل لما تسميه بالتناقض بين الإنتاجية و البيئة، و ذلك عبر العودة إلى المشاريع الطوباوية البرودونية و غيرها حول ما يسمى بالعودة إلى الإنتاجية الصغيرة و الملكية الصغيرة (انظر كتاب ماركس "بؤس الفلسفة"، الذي هو رد على كتاب برودون "فلسفة البؤس").

إن ضرورة تطوير الإنتاج الزراعي و الصناعي للاستجابة لحاجيات النمو البشري الديموغرافي، لا يتعارض بالضرورة مع الطبيعة، و إلا عدنا إلى تجربة الطبقة العاملة في بداياتها الأولى، عندما كان العمال يصبون جام غضبهم على الآلات معتبرين إياها سبب بؤسهم و شقائهم.

إن الإيكولوجيين المعادين للاشتراكية، اللذين يحرفون التناقض الفعلي و الحقيقي القائم بين الرأسمال و الطبيعة، لصالح مثالية تقوم على فكرة التناقض بين الطبيعة و التقدم التقني. إن السوفياتيين في الحدود التاريخية المعروفة، وحدهم من اقترح تقنيات تسمح بتجاوز هذا التناقض بين الرأسمال و الطبيعة بدون السقوط في نوستالجيا ما قبل صناعية بورجوازية صغيرة،

و هو ما يميز اليوم تيارات داخل الحركات الإيكولوجية، و يتحجج الإيكولوجيون بأمثلة يدعون أنها سوفياتية، من قبيل حادثة تشرنوبل (1986) و قبلها كارثة بحر آرال (1960).

إن الجهل بالتاريخ و الاعتماد على التشويهات الغربية في هذا المجال، و القائمة على الخلط بين المرحلة الستالينية و الخروتشوفية في تاريخ الاتحاد السوفياتي، و الفرق شاسع بين المرحلتين، فقد قام خروتشوف بفرض الزراعة المكثفة على الاتحاد السوفياتي مقلدا التجربة الأمريكية، في محاولة للتنافس مع الولايات المتحدة الأمريكية و استدراك التأخر المزعوم، و ذلك بنفس الطرق و القواعد الأمريكية، ، و هذا يعني تحولا في الزراعة السوفياتية، التي انتقلت من مرحلة البيو زراعة إلى الزراعة الرأسمالية، الشيء الذي أصبح يعني الانتقال إلى العمل على المدى القريب و الربح و تحطيم و تخريب الأراضي السوفياتية، ففي المرحلة الخروتشوفية حصل تراجع في مجال حماية البيئة، حيث تم إنهاء المحميات الطبيعية، التي بدأت مع لينين و استمرت مع ستالين.

إن أنصار ما يسمى بالإيكو-اشتراكية، بدأوا يستفيقون من أوهامهم حول الرأسمالية الخضراء، لكنهم ظلوا حبيسي أوهام أخرى، التي ترى أن العدو ليس البورجوازية، باعتبارها طبقة، بل يعود الأمر إلى طبيعة إنسانية عضوية، مسؤولة عن الكارثة الإيكولوجية بحكم لا مسؤوليتها تجاه التقدم التقني، و هو جوهر الطرح الأخلاقي لدى الإيكولوجيين، و بذلك تجدهم يمتدحون نموذج المجموعات الصغيرة القائمة على الاكتفاء الذاتي، و المنكمشة على نفسها، و هو نوع من العودة إلى تجربة دافيد أوين المتعلقة بما يسمى بالفالنستير، و التي تنتمي لما يطلق عليه بالاشتراكية الطوباوية.

إن نقاش نماذج مجتمعية من قبيل تشكيل جماعات صغيرة، يذكرنا بالمشاعات البدائية، و بالنماذج التي اقترحتها الاشتراكية الطوباوية في النصف الأول من القرن 19، و نذكر هنا بالنصوص الكلاسيكية للماركسية مثل "بؤس الفلسفة" كارل ماركس و "الاشتراكية العلمية و الاشتراكية الطوباوية" فريدريك انجلز.

و إن الماركسية تتفوق في هذا المجال، لأن مشروعها الكبير هو تحقيق الشيوعية، هذا المجتمع الذي تنمحي فيه الدولة و الطبقات و الاستغلال و الاضطهاد، و يقوم هذا المجتمع بعد فترة تهيئية تقوم بها دكتاتورية البروليتاريا. و من باب التذكير أن الوصول إلى هذا المجتمع الشيوعي انطلاقا من النظام الرأسمالي لصراع الطبقات و بدون مرحلة انتقالية هو أمر مستحيل، و هذه نقطة أساسية تضع حدا فاصلا بين الشيوعيين و الفوضويين و الاشتراكيين الديموقراطيين، و أغلبهم الآن يتبنون ما يسمى بالإكوسوسياليزم و يقفزون على مرحلة دكتاتورية البروليتاريا.

و هناك اتجاهات فاشية التحقت بالحركة الإيكولوجية، تروج لأطروحات تمجيدية للنظام الإنتاجي الإقطاعي، بتعاضدياته و حرفه في نوع من الحنين إلى الاقتصاد الطبيعي الإقطاعي.

و هناك محاولات لإيجاد صيغ تركيبية بين الماركسية و النسوانية، و بين الماركسية و مناهضة العنصرية، و بين الماركسية و مناهضة الامبريالية، إضافة لمحاولات التركيب بين الإيكولوجيا و الماركسية، كما لو أن هذه العناصر خارجانية عن الماركسية و لا تتحد معها في الجوهر، أي أنها موازية فقط، علما أن الماركسيين كانوا سابقين في طرح القضية النسائية، فليس من قبيل الصدفة أن أول دولة أعطت حق التصويت للنساء هي الدولة السوفياتية سنة 1919. أما مساهمة الماركسيين في محاربة العنصرية فحدث و لا حرج (مثال نضال الأفروأمريكيين من أجل الحقوق المدنية، التي أنتجت حركات مناضلة تتبنى الماركسية من قبيل "حركة الفهود السود"، أما محاربة الفاشية فقد تصدت الجبهات الشعبية في أوروبا بقيادة الشيوعيين لصعود الفاشية في أوروبا، و قد ساهم الاتحاد السوفياتي بدور حاسم في هزم النازية و الفاشية، و ضحى 28 مليون سوفياتي بحياتهم من أجل إسقاط النظام العنصري النازي و الفاشي، أما مساهمة الماركسيين في إنشاء حركات مناهضة للامبريالية فغنية عن التعريف، و قد لعبت الثورات الصينية و الفيتنامية و الثورات في الهند الصينية و في أمريكا اللاتينية أدوارا كبيرة و حاسمة، أدت إلى سقوط الامبراطورية الاستعمارية و وصول حركات التحرر الوطني للسلطة في العديد من دول القارات الثلاث (إفريقيا، آسيا و أمريكا اللاتينية).

لقد واكبت هذه التطور، بل استبقتها أحيانا، بل مدت حركات التحرر الوطني و الحركات المناهضة للعنصرية و الحركات النسائية بالبوصلية النظرية لقيادة النضال و تحقيق النصر. كل هذا يثبت أن هذه القضايا تنتمي إلى جوهر متحد مع الماركسية، التي يقوم مشروعها الاستراتيجي على ضرورة التحرر الإنساني من كل أشكال الاستغلال و الاضطهاد و الاستيلاء.

هناك العديد من الأسئلة تطرح نفسها للمزيد من النقاش حول الماركسية و الإيكولوجيا، من بين هذه الأسئلة هل حماية الطبيعة مسألة علمية و جماعية أم "أخلاقية" و فردية؟

الحركة الإيكولوجية و مبدأ الإنتاجية

يقوم هذا المبدأ على فرضية فلسفية تمجد الطبيعة التي يقوم عمل الإنسان بتدنيستها، و على هذا الأساس تتم معارضة التقدم الإنساني و التقدم التقني.

و الحال أن الحقيقة التاريخية تبرز أن تاريخ الإنسان هو تاريخ تدجين محيطه الطبيعي، و قد كان العمل التأسيسي في هذا هو الثورة النيوليتيكية (مرحلة العصر الحجري الحديث، و هي آخر

مرحلة في ما قبل التاريخ، و شكلت مرحلة تاريخية أساسية بالنسبة لتاريخ الإنسانية، و تمتد حسب بعض الدراسات ما بين 6000 سنة و 2500 سنة ق.م).

و يتميز ما قبل التاريخ بالانتقال من قبائل تعيش على الصيد و القطف، إلى جماعات بشرية مستقرة قامت بتدجين النباتات و الحيوانات من أجل تلبية حاجياتها الأساسية. لقد شكلت هذه الجماعات أولى البشر اللذين طبقوا "مخططا لتغيير الطبيعة"، و بدون عملهم هذا ما كان للأحصنة و الأبقار و الخرفان و القمح و الشعير و أشياء أخرى غيرها الإنسان أن توجد، و خلال آلاف السنين تعمم هذا التغيير الجذري للطبيعة المحيطة بالإنسان إلى كل بقاع الأرض، و الإنسان نفسه تغير بالمقابل، خصوصا في عاداته الغذائية و تأقلماته الأيضية.

و هنا، و في حقيقة الأمر يجب التمييز بين تغييرات البيئة من طرف الإنسان، و مدى إمكانيات تغيير التوازنات الطبيعية الكبرى بدون المساس، على المدى البعيد، بإمكانية تلبية حاجياتنا الغذائية أو الطاقية، و علينا إذن أن نميز إلى أي حدما أن التغييرات الضرورية لنمط حياتنا هي مرتبطة بتلبية حاجياتنا و مصالحنا الحيوية (كمية و نوعية تغذيتنا من أجل تجديد الطاقة الضرورية لأنشطتنا).

و في المجتمع الرأسمالي فالمحرك الأول هو البحث عن، و تحقيق الربح الأقصى، و تلك صفة أساسية و عضوية في نمط الإنتاج الرأسمالي.

انطلاقا من هذا المعطى الأخير، يبين الماركسيون أن الطبقة العاملة قاعدة الإنتاج المادي، و التي يتمثل دورها التاريخي في القضاء على النظام الرأسمالي، من أجل تحقيق، في نفس الوقت، مصالحها و مصالح الإنسانية جمعاء، و لذلك وجب أن تكون في طليعة النضال ضد هذه الطبقة الطفيلية البورجوازية، التي تقودنا إلى الانهيار بما في ذلك مواردنا الطبيعية.

و على هذا الأساس، بل على هذين المستويين، يجب فهم، في نفس الوقت، مناهضة الإنتاجية، و مناهضة الشيوعية داخل الحركة الإيكولوجية في بداياتها، و إلى حدود ظهور تيار الإيكو-اشتراكية، و قد شكل هذا الأخير تطورا لا بأس به على مستوى التلاقي في النضال المناهض للرأسمالية، لكن تظل مع ذلك إمكانيات ظهور اختلافات خطيرة، عندما يتعلق الأمر بنقد الاختيارات الاستراتيجية للدول المناهضة من أجل سيادتها الوطنية ضد النهب الامبريالي، أو فيما يتعلق بعمل العمال في الصناعة الحالية.

أما النقطة الثانية، فتتعلق بمدى علاقة الارتباط التي تجمع الماركسية بالإيكولوجيا. لقد قلنا أعلاه أن الماركسية و الإيكولوجيا تنبعان من نفس الجوهر، و يقول ماركس بشكل واضح:

"كل تقدم في الزراعة الرأسمالية هو تقدم ليس فقط في فن استغلال العامل، بل هو كذلك فن تجريد الأرض: فكل تقدم في فن زيادة الخصوبة بالنسبة لوقت معين، هو في نفس الوقت تقدم في تدمير الموارد الدائمة للخصوبة (...). إن الإنتاج الرأسمالي لا يطور التقنية و مزج سيرورة الإنتاج الاجتماعي إلا عن طريق إنهاك في نفس الوقت، المصدران اللذان تنبع منهما الثروة" (الأرض و العامل، "الرأسمال" الكتاب الأول طبعة 1967).

حسب ماركس، فمن الممكن، و طبعاً مرغوب فيه، تطوير تقنيات الإنتاج بدون الزيادة في تدمير الموارد الدائمة. و قبل الإيكو-اشتراكيين ب 100 سنة، أكد انجلز ما يلي:

"هناك حيث الرأسماليون الفرديون ينتجون و يتبادلون من أجل الربح المباشر، لا يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار، و بالدرجة الأولى، سوى النتائج القريبة جداً الأكثر مباشرة، شريطة، و بشكل فردي، الصانع أو التاجر يبيعان البضاعة المنتجة أو يشترونها بأبسط ربح متعارف عليه، فهو مرتاح و لا يهتم بما سيصير بعد ذلك بالنسبة للبضاعة و لمشتريها، و نفس الشيء بالنسبة للتأثيرات الطبيعية لهاته الأعمال.

إن المزارعين الإسبان في كوبا، و اللذين أحرقوا الغابات في المرتفعات، وجدوا ما يكفي من السمد بالنسبة لجبل من شجر البن، خصبة إلى أقصى حد، فما كان يهمهم بعد ذلك أن التساقطات المطرية المدارية تذهب بالغلاف السطحي للأرض، التي أصبحت من الآن بدون حماية، أمطار لا تترك وراءها سوى صخوراً عارية. و سواء بالنسبة للطبيعة أو بالنسبة للمجتمع، فلا يؤخذ بعين الاعتبار بشكل رئيسي، في نمط الإنتاج الحالي، سوى النتيجة الأكثر قرباً، و الأكثر ملموسية، و بعد ذلك، يستغربون حول النتائج البعيدة لتلك الأعمال الهادفة إلى هذه النتيجة المباشرة، أعمال مغايرة مما كانوا يتصورون، أو على النقيض من ذلك" ("دور العمل في تحول القرد إلى إنسان" 1876).

و يضيف لينين:

"إن إمكانية تعويض المخصبات الصناعية بمخصبات طبيعية (...) لا يدحض في شيء، لا العقلانية التي تقوم على تبذير الأسمدة الطبيعية، عن طريق تلويث الأنهار و المياه في المجتمعات الصناعية" ("كيف يتم القضاء على التعارض بين المدينة و البادية"، مجلد 5، الأعمال الكاملة، لينين).

إذا كان النضال من أجل حماية البيئة ينبع منطقياً من النضال ضد الرأسمالية، فليس هناك أي حديث هنا عن نوع من غريزة الإنسان، متمثلة في الإنتاج و توسيع الطبيعة، في هروب إل الأمام،

وذلك لطبيعة عميقة في الإنسان (إنسان مخرب للطبيعة)، و على العكس، وحده العلم، كمنشأ إنساني دائم في حقل المعارف والتقنيات، يسمح للمجتمعات استشراف تدهور، على مدى معين، لموارد يمكن استغلالها تلقائياً و مباشرة و حتى النهاية، و هنا كذلك، يمكن لنا أن نبين أن النظام الرأسمالي، ليس فقط على المستوى النظري، بل خاصة، و بالتالي على المستوى العملي، لا يمكنه أن يضع استراتيجيات عقلانية للموارد الطبيعية.

على المستوى التطبيقي

إن النظام الرأسمالي يعطي الأولوية و الأسبقية لتمويل قطاعات البحث الأكثر ربحاً، بهدف تحقيق الربح الأقصى.

على المستوى النظري

إن كوابح الفكر الوحيد البورجوازي يعرفها اليوم الباحثون الزراعيون اللذين حاولوا الانشقاق عن ما هو سائد، مثال كلود بوعينيون، باحث زراعي و محاضر ذي صيت واسع، و هو الذي حاول إدخال البيولوجيا في النقاشات بين مهنيي الزراعة، و التي تظل إلى يومنا هذا مرتبطة بالكيمياء (الأسمدة الكيماوية و المبيدات الحشرية، التي تنتجها الصناعات الزراعية) و يثبت هذا القول، ذلك الاختفاء الذي عرفته فرنسا في سنوات السبعينات لكراسي ميكروبيولوجيا الأرض في الجامعة، و كذا استحالة النضال ضد الزراعة المكثفة "الكيماوية" داخل الإنرا.

أما النقطة الثالثة، فتتعلق بالزراعة الإيكولوجية

من الناحية التاريخية، فإن هذا النوع من الزراعة هو اختراع سوفياتي 100% في ظل مجتمع اشتراكي يحكمه نموذج مسيطر هو المادية الجدلية.

لقد عرف الاتحاد السوفياتي تقدماً هائلاً على مستوى الإيكولوجيا و الزراعة المسمدة بيولوجية، و اتهم الاتحاد السوفياتي في الحقبة الستالينية بالسير على طريق الإنتاجية، هو محض افتراء، و ذلك بالخلط بين مرحلة ستالين و مرحلة خروتشوف.

لقد عرفت سنوات الثلاثينات و الأربعينات ذروة ازدهار التصورات و الممارسات في الزراعة الإيكولوجية، و ذلك في الاتحاد السوفياتي، و أدخل خروتشوف الزراعة المكثفة الرأسمالية، في إطار المنافسة مع الولايات المتحدة في السيطرة على العالم، فيما سمي بمرحلة "التعايش السلمي" (للمزيد من الاطلاع الرجوع إلى كتاب "علم الجينات و البيولوجيا ... العلم البورجوازي

و العلم البروليتاري" 1950، و كذلك كتاب "التنوع البيئي في خطر/ الشركات المتعددة الجنسيات"، "الكائنات المعدلة جينيا".

إن هذا العدد، الذي لا يحصى من الأنواع النباتية التي تتوفر عليها اليوم، تعتمد على العمل الانتقائي ل 400 جيل من النساء و الرجال، الذي توارثته الأجيال جيلا بعد جيل، أصبح اليوم مهددا بشكل كبير بالانقراض، نتيجة ما يسمى بالزراعة المعدلة جينيا.

و بالعودة إلى الاتحاد السوفياتي، فبالنسبة لحقبة طويلة، كان أعظم و أشهر الإيكولوجيين من السوفييات و من أشهرهم فاسيلي دو كوتشايف مؤسس علم التربة، و فلاديمير فيرناتسكي، و هو الذي أسس لمفهوم التنوع البيئي، المصطلح الذي استعمل لأول مرة في الاتحاد السوفياتي، و يعرف بقولته الشهيرة "كلنا أبناء الشمس".

منذ لينين، انتشر في الاتحاد السوفياتي ما يسمى ب زابوفيدنيكا (محميات طبيعية مندمجة ممنوعة عن أي تدخل إنساني) و قد أصدر لينين أول قانون في هذا الصدد سنة 1921، الذي سمح بانتشارها و تطورها على مستوى الاتحاد السوفياتي عن طريق تأمين ملايين الهكتارات.

و عند الحديث عن الاتحاد السوفياتي، لا يمكن نسيان البرنامج الزراعي الغابوي المسمى "الخطة الكبرى لتغيير الطبيعة"، و في سنة 1932، استطاع الاتحاد السوفياتي بناء أكبر سد في العالم.

و قد يطول الحديث عن التجارب الاشتراكية في مجال الإيكولوجيا، خاصة إذا أضفنا التجربة الصينية، و بالأخص تجربة الكومونات الشعبية.

الاشتراكية و التخطيط و الاستراتيجية البعيدة المدى

وحدها الاشتراكية بإمكانها، عن طريق التخطيط البعيد المدى، تحقيق القطيعة على صعيد بلد بكامله مع الزراعة المكثفة الرأسمالية، فتتحقق الزراعة الإيكولوجية المستقلة، التي تنتج المكونات الطبيعية خارج السوق العالمية الربحية للمبيدات و الأسمدة الكيماوية.

و من القضايا التي يقع فيها الخلاف بين الماركسيين و التيارات السائدة إيكولوجيا، الخلاف حول، هل يجب تبني تكتيكات و استراتيجيات إيكولوجية تقوم على العلم و المعرفة، أو تبني رومانسية خضراء.

إن وحدة النضال ضد الرأسمالية، و وحدة الطبقة العاملة على الصعيد العالمي، يستدعي حوارا دائما و جادا و مستمرا مع التيارات الإيكولوجية، من أجل وحدة حركة النضال ضد الرأسمالية، و

بطبيعة الحال لابد من مراعاة مجموعة من النقط من أجل حوار موضوعي و جاد، و لتحقيق أرضية موحدة لالبد:

1- من الاعتراف بأن الاشتراكية كانت سبابة إلى الاهتمام بحماية البيئة و حققت مكاسب في ذلك يمكن البناء عليها.

2- الاعتراف أن النضال من أجل الشيوعية، حيث تختفي الدولة، بعد مرحلة انتقالية تسمى الاشتراكية، يسمح بمجتمع تحظى فيه الإيكولوجيا بموقع متميز.

3- انطلاق من نظرية الصراع الطبقي، و دحض أطروحات الإيكولوجيا السياسية، القائمة على الطابع البورجوازي الصغير لقاعدتها الاجتماعية، و وضع خط فاصل بين التصورين فيما يخص مسألة الإنتاجية، و للمسألة أهمية قصوى، فقد ظهر نوع من الانتهازية يقبل أصحابه ببعض المؤاخذات الإيكولوجية، و انتشرت كذلك الاشتراكية الديموقراطية داخل الحركة الإيكولوجية، في سياق مرحلة تاريخية تتميز بالتراجعات الإيديولوجية، و فقدان البوصلة الإيديولوجية بالنسبة للحركة الشيوعية العالمية، إضافة إلى الأكاذيب و الافتراءات على التجربة الاشتراكية، التي تخطط بين المرحلة الاشتراكية و المرحلة الخروتشوفية التي أسست لرأسمالية الدولة في الاتحاد السوفياتي و رأسمالية السوق.

4- ضرورة التمييز بين الاختيارات الاستراتيجية و الاختيارات التكتيكية.

هنا لابد من التمييز بين الاختيارات التكتيكية و الاستراتيجية في التجربة السوفياتية، فالاختيارات اللينينية لسياسة النيب كان تكتيكا و ليس استراتيجية، في ظل الظروف التي عاشها الاتحاد السوفياتي، نتيجة الحرب الأهلية و الحصار الامبريالي، ثم إن شعوب العالم تناضل اليوم من أجل استقلالها السياسي و الاقتصادي، و من أجل السيادة الوطنية، و لا يجب الخلط بين اختيارات هذه البلدان، التي تتضرر أكثر من نتائج السياسات البيئية للرأسمالية العالمية و بين ما يجري داخل المراكز الرأسمالية.

5- لقد حصل تقدم ملموس على مستوى الوعي داخل الحركة الإيكولوجية، ساهم في جعل العديد من المناضلين الإيكولوجيين يرفضون ما يسمى ب "الرأسمالية الخضراء"، لكن، و مع ذلك، فلا زال نوع من الاضطراب الإيديولوجي و السياسي فيما يخص التعامل مع دول الجنوب، فنجد أن الحركة توجه انتقادات كثيرة لتلك الدول، التي تحتاج إلى الدعم الأممي في نضالها ضد الامبريالية، و على هذا المستوى، فهناك غموض كبير يلف مسألة النظر إلى النضال من أجل الاستقلال الوطني، باعتباره الشرط الأساسي للتغيرات الاجتماعية في سياق ما قبل اشتراكي، في

انتظار بناء مجتمع بدون دولة و صراع الطبقات، و لا تناقض الرأسمال و الطبيعة، تلك العوامل التي يجب أن تتوفر في مجتمع شيوعي.

إن ما يجري في المؤتمرات العالمية حول البيئة، تقوم فيه البورجوازية العالمية (شقها الغربي) بمحاولات للفصل بين الدول الملائكية، التي تقوم بحماية البيئة أو تسير في هذا الاتجاه، و بين الدول التي يتم شيطنتها، و التي تمثل القوى الصاعدة على الصعيد الرأسمالي، و الهدف واضح، و هو محاولة فرملة ما أمكن نمو هذه القوى الجديدة (الصين، روسيا، الهند، البرازيل، جنوب إفريقيا، كوريا الجنوبية ...)، و الحال أن الرهان لدى القوى الامبريالية الغربية، يتطلب أقل في مجال البيئة من تلك الدول، التي أصبحت مصانع للعالم، بعدما نقلت الدولة الغربية أهم صناعاتها إلى تلك الدول، و بطبيعة الحال، لا ينطلي هذا المكر على أحد عندما يحملون هذه الدول مسؤولية التلوث على الصعيد العالمي، و المسؤولية الإيكولوجية على تدمير البيئة، و بطبيعة الحال، فإن هذه الدول الغربية، بالرغم من تهجير صناعاتها، في إطار البحث عن الربح الأقصى و الكلفة الأقل، لا زالت تتحمل المسؤولية الكبرى فيما يخص انبعاث الغازات المسببة للاحتباس الحراري على مستوى الأرض.

و من باب تكذيب المزاعم الغربية، تشير الأرقام إلى نسب إنتاج غاز الكربون، فالصين تنتج 10 جيغا طن من الكربون، و الولايات المتحدة 5 جيغا طن، و الاتحاد الأوروبي 4 جيغا طن، هذا على مستوى القيمة المطلقة، أما إذا قمنا بدراسة هذا الإنتاج بحسب السكان، فسنصل إلى قيمة حقيقية، فالولايات المتحدة تنتج 20 طن للفرد الواحد، و الاتحاد الأوروبي 10 طن للفرد الواحد أما الصين ف 8 طن للفرد الواحد.

ستعرف الحركة الإيكولوجية تقدما هائلا في نضالها، عندما تتعلم التمييز الضروري بين التكتيك و الاستراتيجية الطاقية، وكذلك تعقيدات النضال ضد الرأسمالية من أجل بناء الاشتراكية، و التي تمثل مرحلة متقدمة بالنسبة لعالم يقوم على احترام الإيكولوجيا، و لن يتحقق ذلك إلا بالنضال العام ضد المسؤولين الحقيقيين على تدمير البيئة و الإنسان (انظر كتاب الفيلسوف و المؤرخ دومينيكو لوساندو "الهروب من التاريخ" منشورات دلغا 2007).

(المرجع، انظر مقالة: "الايكولوجيا على ضوء الماركسية اللينينية" منشور حلقة هنري باربوس)المراجع

- "الايكولوجيا صراع طبقات"، ماتيو فيكور

- "الايكولوجيا صرا طبقات"، جان بابتيست كومباي

- "إيكولوجيين لكن ليس كثيرا..." جان بابيتس كومباي
- "الرأسمال"، كارل ماركس
- المخطوطات الفلسفية و الاقتصادية"، كارل ماركس
- "الإيديولوجيا الألمانية"، كارل ماركس
- "كارل ماركس، نقد الحداثة البورجوازية"، أندريس باريدا
- "الماركسية الإيكولوجية"
- "جدلية الطبيعة"، فردريك انجلز
- "دور العمل في تحول القرد إلى إنسان"، فردريك انجلز
- "ماركس إيكولوجيا"، جان بيلامي فوستر، 2011
- "إنذار بالكارثة"، إستفان انجل
- "بؤس الفلسفة"، كارل ماركس
- "كيف يتم القضاء على التعارض بين البادية و المدينة"، لينين، المجلد الخامس، الأعمال الكاملة
- "علم الجينات و البيولوجيا ... العلم البورجوازي و العلم البروليتاري"
- "التنوع البيئي في خطر/ الشركات المتعددة الجنسيات"
- "الكائنات المعدلة جينيا"
- "الهروب من التاريخ"، دومنكو لوساندو، منشورات دلغا، 2007
- "الإيكولوجيا على ضوء الماركسية – اللينينية" (حلقة هنري بربوس)

علي محمود